ازمة الحرية
في الرواية العربية المعاصرة

صبري حافظ

ليس ثمة شك في ان ازمة الحرية واحدة من أهم قضايا عالمنا المعاصر. بل انها على الصعيد العربي اهم هذه القضايا دون جدال. فغياب التقاليد الديمقراطية من واجهة الحكم، ووقوع الوطن العربي لفترات طويلة تحت وطأة المدّ الاستعماري الذي بلغ مداه مع مطلع هـذا القرن، والمصادرة المستمرة لحرية الجماهير الشعبية، وعدم تمكن هذه الجماهير من السيطرة على القوى الموجهة لمقدراتها، وتوالي الحكومات العميلة والمتعسفة على ارض هذا الواقع، وغير هذا من العوامل المتشابكة، — هي التي مركزت ازمة الحرية في المكان المحوري من لوحة الازمات في واقعنا العربي المعاصر، الذي يعبق التخلف الحضاري الشديد في سراديبه، كل سراديبه. فهيأ تضخم هذا التخلف واستمراريته غياب الحد الأدنى من صراع الفكر الذي تسمح به حتى الحرية بمفهومهـا البرجوازي المتخلف، والذي ازدهرت في ردهاته الحضارة الاوربية في القرن الماضي؛ وان كانت هذه الحضارة، ورغم وجود هـذا الحد الأدنى من الحرية البرجوازية، تعـاني الآن من ازمة مريرة ترتوي من غياب الفلسفات المبررة لتفسخ هذه الحضارة، بعد ان التهم تضخمها كل شروطها الانسانية التي نثرتهـا في المهد حول مواقع خطاهـا رغم كل صرخات سبينغلر وتوينبي وولسن وراندال وايتهد وغيرهم.

لذلك فان كافة قضايا الواقع العربي على ارتباط ما بهذه القضيـة، ابتداء من البثرات الاجتماعية الصغيرة التي تظهر كالطفح على وجه واقعنا المجتمعي، حتى اكبر مشاكله السياسية والفكرية واكثرها تعقيداً. وهذا هو ما يجعلنا نعثر على معالجات لهذه القضية من اكثر من وجه من وجوهها الاجتماعية او الاقتصادية او الفكرية في شتى كتابات فنانينـا من شعر ورواية ومسرح واقصوصة. بل نكاد نجزم بأنه ليس ثمة كاتب عربي مخلص في الالتصـاق بأرض الواقع لم يعالج هذه المشكلة في كتاباته بوجه من الوجوه.

ففي كافة أرجاء الوطن العربي كانت هذه القضية وما زالت اكثر قضايا الواقع الحاحاً للمعالجة، ذلك لالتحام هذه القضية بطبيعة تكوين علاقات الانتاج في المجتمع، ولارتباطها في فترات طويلة بقضية الاستقلال. وهذا هو ما دفع كافة الاتجاهات، يمينيـة كانت او

يسارية او بين بين ، الى تحديد موقفها بصرامة – وعلى الصعيد الفكري خاصة - تجـــاه هذه القضية . غير ان نوعية ظروف كل بلد بعد حصوله على جزئيـــة الاستقلال ، غيرت بشكل حاد من موقف اغلب الاتجاهات الفكرية تجاه هذه القضية. اذ تذبذب هذا الموقف بين التجاهل التـــام او التجديف بانتفاء وجودها على الاطلاق – وخاصة في المرحلة التي احتلت فيها هذه القضية مكان البؤرة من لوحة ازمات الواقع ، بعد تحقيق الاستقلال . ولا يسعنا الا ان نقول بأن العناق الدائم بين قضيتي الاستقلال والحرية قد جنى بصورة واضحة على القضية الاخيرة ، اذ ارتبطت في اذهان الكثيرين بالقضية الاولى ، ومن ثم خيل اليهم بعد تحقيق الاستقلال ان القضيتين قد حلتا. بينما كانت قضية الحرية اكثر تأزماً بعد تحقيق هذا الاستقلال منها قبله، اذ ان غياب التقاليد الديمقراطية من حكم يدعي الوطنية والتمثيل الحقيقي للمصالح الشعبية ، يجعل القضية اكثر ضراوة مما كانت عليه في مرحلة الاستعمار. والذي يهمنا في هذه الدراسة ، بعد هذه المقدمة القصيرة ، ان نتصيد الطرح الروائي لهذه القضية دون بقية الاجنـــاس الادبية الاخرى ، التي نرجو ان تتـاح لنا معالجتها في دراسات قادمة .

ورغم ان عمر الرواية العربية بالمعنى الصحيح لم يتجاوز النصف قرن ، الا اننا نلاحظ وفرة نسبية في الانتـــاج الروائي وخاصة في السنوات الاخيرة . ونجد ان كل الروائيين الصادقين في التعبير عن واقعهم الحضاري بكل ما فيه من تناقضـــات ، قد عالجوا هذه القضية بوجه من الوجوه . بل اننا نجد ان ثمة روائيين شغلوا بهذه القضيـة دون سواها من قضايا الواقع ، كالروائي المصري عبد الرحمن الشرقاوي الذي جاء تنـاوله لكافة قضايا الواقع المصري ضمن اطار معـــالجته الاساسية لهذه القضية التي تحتل المكان المحوري في رواياته الثلاث : « الارض » و « قلوب خالية » و « الشوارع الخلفيـة » . كما نجد ان روائياً آخر كنجيب محفوظ رصد ابعـــاد هذه الازمة في كافة رواياته ، وعبر مراحل تطوره الروائي المختلفة . بينما عالجها آخرون ضمن كثير من رواياتهم ، مثل يوسف ادريس وسهيل ادريس ومطاع صفدي وعبد السلام العجيـــلي وغيرهم . في كافـــة هذه الاعمال الروائية تأرجح الطرح الفني للقضيـــة بين التناول العميق لكافة الابعـاد الراسمة لملامحها ، وبين الطرح التجريدي والتناول الشكلي لملامحها وابعادها . لذلك سوف نحاول

ان ندرس القضية لدى كل كاتب على حدة ، وان نتصيد ابعاد رؤيته لكافة زواياها .

ولنبدأ بعبد الرحمن الشرقاوي الذي استحوذت هذه القضية على كل اعماله ، من رواية الى شعر الى اقصوصة الى مسرحية . وليس هذا غريباً على عبد الرحمن الشرقاوي ، فهو الى جانب التزامه الصارم للواقعية كمنهج في التفكير وفي التعبير ، قد عاش يناعة شبابه وسط دمدمات تفجر مراجل الغضب الشعبي العارم في معارك كفاحنا الدامية من اجل الحرية ، المعارك التي كانت علماً على تلك الفترة الواقعة بين اعوام ١٩٢٨ – ١٩٣٦ حيث تتابعت حكومات العهد السياسي على وجه مصر – محمد محمود ، اسماعيل صدقي ، عبد الفتاح يحيى ، توفيق نسيم – بعد ان عطلت حكومة « اليد الحديدية » برئاسة محمد محمود دستور سنة ١٩٢٣ ، وبعد ان صادر اسماعيل صدقي كافة الحريات الشعبية عام ١٩٣٠ معبراً عن ارادة الرأسمال العميل المتحالف مع كبار ملاك الاراضي ، ضارباً البرجوازية المصرية التي عانت آلام المخاض في ثورة ١٩١٩ . فألغى دستور ١٩٢٣ وجاء بدستور ١٩٣٠ الذي منح الملك سلطات واسعة للغاية ، وصادر حرية الصحافة ، وطبق قانون مطبوعات ١٨٨٢ ، وزيف انتخابات – على درجتين – دفعت الى مقاعد البرلمان بالدمى التي يريدها . وغير هذا من الاجراءات التي صادرت تماماً كافة حريات الجماهير الشعبية ، ومن ثم فجرت مراجل الغضب الشعبي العارم في تلك الفترة ، وعاش شعبنا مرحلة من اكثر مراحل حياته خصوبة في الكفاح من اجل الديمقراطية .

لذلك كان عبد الرحمن الشرقاوي صادقاً مرتين : المرة الاولى حينما مركز قضية الحرية في المكان المحوري من كل اعماله ، والمرة الثانية حينما اختار النماذج الانسانية التي أدار من خلالها كفاح شعبنا البطولي من اجل ديمقراطيته من البرجوازية الصغيرة . ذلك لأن أبناء هذه الشريحة الاجتماعية ، ولظروف نوعية خاصة ، هم الذين قادوا بحق – في القرية والمدينة – كفاح شعبنا من اجل الحرية ، اذ اتيح لهم في تلك الفترة ان يكونوا على درجة نسبية من الوعي بحقيقة التناقضات التي كانت تحرك الواقع آنذاك . بينما كان الفلاحون غير مدركين لأهمية هذه المعركة ، وان ظهر احساسهم بخطورتها واضحاً في « الارض » . وكان العمال متفوقين في جماعيات حرفية صغيرة ليست على القدر الكافي من الوعي الذي يؤهلها لقيادة المعركة ، بينما تحالف الرأسمال العميل مع كبار ملاك الاراضي وعمل جاهداً على مصادرة كافة حريات الجماهير الشعبية . ومن ثم لم تبق غير البرجوازية الصغيرة لتحمل عبء المعركة .

وقد تركت هذه الرؤية الصادقة الصحيحة لابعـــاد الواقع ميسمها على روايات عبد الرحمن الشرقاوي الثلاث، التي ناقش فيها كل قضايا الواقع المصري من خلال هذه القضية، وان تزحزحت ازمة الحرية في « قلوب خالية » عن المكان المحوري من البنـاء الروائي ، اذ دارت احداث الرواية اثناء فترة الحرب العالمية الثـــانية حيث احتل الغلاء والازمة الاقتصادية مكان الصدارة من لوحة ازمات الواقع المصري حينئذ . كما كان الوفد في الحكم في هذه الفترة — وهو بتعبير تلك الايام بؤرة لقاء الاماني الشعبية وملتقى تطلعاتها؛ خاصة وقد وقف الوفد ، خلال فترة حكومات العهد السياسي، بصلابة ويسارية (رغم مواقفه طوال حياته ، خاصة وهو في السلطة : فالبرجوازية لا تشتد يساريتهـا الا وهي خارج الحكم) الى جانب الجماهير الشعبية في معركتها من اجل حريتها .

اما « الارض » و « الشوارع الخلفية » اللتان دارت احداثهما في الفـــترة الممتدة من ١٩٣٠ الى ١٩٣٦ ، حيث كانت ازمة الحرية هي قضية الشعب الاساسية ، فاننا نجد ان عبد الرحمن الشرقاوي قد بثّ هذه الازمة بذكاء حتى خلال الاحداث اليومية الصغيرة ، واستطاع بمهارة فنية فائقة ان يربط كافة جزئيات الحياة اليومية البسيطة بقضية الشعب في تلك الفترة — قضية الحرية — وان يؤكد لنا ان غياب الدستور كامن وراء فصل سعد من المدرسة في « الشوارع الخلفية » ووراء عدم توفر المياه الكافية لريّ اراضي الفلاحين في « الارض » . وان الجو الذي تغيب عنه الحرية يموت فيه كل شيء حتى النبات ، المعـادل المباشر للحياة . كما اكد في الوقت نفسه ان هذه الحرية لن تعود دون كفاح شعبي مرير من اجلها . لذلك فانه يدير في مئات الصفحات — في « الارض » و « الشوارع الخلفيـة » — عريضة صغيرة يجمع عليها توقيعات الناس من اجل مطالبهم البسيطة ، من اجـل ان يعود سعد الى مدرسته التي فصل منها ، وان تعود المياه — الحياة — الى التدفق في شرايـــين القرية؛ مؤكداً ان كافة هذه التراكمات الكمية الصغيرة لا بد ان تؤدي في النهاية الى تغيرات كيفية تساهم في بعث الفجر الجديد وتسارع من طلوع شمسه . وانطلاقاً من هذا الاعتقاد فانه يقدم في الوقت نفسه ثقته المتزايدة في التنظيمات الشعبية ، واحترامه المتزايد لكافـة الاساليب الكفاحية مهما صغرت ، مؤكداً عبر احداث رواياته الثلاث حتمية جدواهـا وعظمة مفعولها.

ولأنه فنان صادق ، فانه يجمع كافة الجزئيات الصغيرة المؤكدة لعدالة القضية الـــتي يدافع عنها ، فنجد مثلاً ان مدرس التاريخ يقف الى جوار سعد في معركته الضارية مع

اوتوقراطية الناظر المستبد ، تلك المعركة التي انتصر فيها سعد، التلميذ الصغير ، على الناظر المستبد العميل – ولا غرو : فقد كان مدرس التاريخ والطلبة، او بمعنى آخر التاريخ الانساني كله ، والجموع ، في صف هذا التلميذ الصغير ، ومن ثم تحتم انتصار قضيته العادلة . هذا الى جانب رصده لكافة مظاهر التفسخ في المجتمع وتأكيده ان هذا التفسخ وليد انتفاء الحرية وغيابها . وانه لو كانت ثمة مؤسسات شعبية جماهيرية وتنظيمات طلابية وفلاحية لأمكن لهذه التنظيمات والمؤسسات ان تحمي حرية الجماهير من الاغتيال . فيقول في « الشوارع الخلفية » بأنه لو كانت ثمة اتحادات لطلاب المدارس الثانوية لتمكنت من الوقوف في مواجهة استبداد الناظر واوتوقراطيته ، ولأعادت كافة جماعات النشاط المدرسي التي اوقف نشاطها بعد ان تيقن من فاعلية تأثيرها عليه، واستطاعتها ان تحد من اوتوقراطيته، باعتبارها احدى وسائل الكفاح الجماهيرية. كل هذا تمكن الشرقاوي من ان يقدمه لنا بطريقة فنية مقنعة، عبر رواياته الثلاث، التي تزاوجت فيها الرؤية الفاهمة لحقيقة التناقضات التي يتحرك من خلالها الواقع ، بشفافية الاحساس الفني الذي يلتقط من الواقع أدق الدقائق التي تؤكد – دون تقريرية – المضمون الذي يريد الكاتب تقديمه . ولنكتف الآن بهذا القدر من الحديث عن معالجة الشرقاوي لأزمة الحرية لنرى كيف عالجها غيره من الكتاب.

سنجد ان معالجة نجيب محفوظ للقضية جاءت مختلفة نسبياً عن معالجة الشرقاوي لها، وذلك لاختلاف المنطلق الفني الذي يقدم كل منهما خلاله رؤيته للواقع من جهة، ولاختلاف نوعية هذه الرؤية من جهة اخرى . فقد حاول نجيب محفوظ – مخلصاً – ان يحمل في في رواياته ، على طول مراحل تطوره الروائي حتى الثلاثية ، كافة قضايا الواقع دون تحيز لواحدة على حساب الاخرى . وقد حملت هذه العدالة بين طياتها وجهاً من الظلم خفياً ، اذ توزع اهتمام الكاتب بالتساوي بين قضايا لا تحتل مكانات متساوية من لوحة قضايا الواقع. ولكن ليس هذا مجال دراستنا ، فقد عبر نجيب محفوظ في رواياته عن قضية الحرية ، والمهم ان نعرف الآن كيف تم هذا التعبير .

فمن البداية شغلت هذه القضية نجيب محفوظ ، حتى في مرحلته التاريخية الاولى (« عبث الاقدار » و « رادوبيس » و « كفاح طيبة »)، اذ تمكن فيها ومن خلال اطار موغل في القدم – التاريخ الفرعوني – ان يناقش قضايا شديدة المعاصرة، مثل قضية الموقف من الاستعمار وقضية الحرية وقضية التخلف الحضاري وغيرها. غير ان هذه المعالجة ما لبثت

ان ازدادت عمقاً ووضوحاً في المرحلة الاجتماعية (« زقاق المدق » و «فضيحة في القاهرة» و « بداية ونهاية » و « خان الخليلي ») . ثم عثرت على اعماقها الحقيقية في مرحلة الثلاثية (« بين القصرين » و « قصر الشوق » و « السكرية ») . في هذه المراحل الثلاث كلها كان اهتمام محفوظ – كما قلت – موزعاً بالتساوي بين كافة قضايا الواقع. غير انه في المرحلة الرابعة ، المرحلة الروائية الجديدة ، التي تحتوي على « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » و « الطريق » ، قد ركز على هذه القضية دون سواها . وقدم عبر رواياته الثلاث تلك رؤية كاملة الابعاد لكافة ملامحها . ولنرَ في البداية كيف تمت معالجة نجيب محفوظ للقضية في نطاق مراحله الثلاث الاولى ، ثم نتناول بعد ذلك تعبيره عنها في المرحلة الرابعة التي تعد بالكثير .

خلال هذه المراحل الثلاث جاء علاجه لها – لأزمة الحرية – ضمن العلاج العفوي للواقع ككل. لذلك يصعب علينا ان نتصيد خلالها رأياً متكاملاً في هذه المعركة، ولكننا سنجد تركيزاً مستمراً على العناق الدائم بين قضيتي الحرية والاستقلال . كما يمكننا ان نلمح بعض ايحاءات تفصيلية لأزمة الحرية على حدة في « القاهرة الجديدة » (او « فضيحة في القاهرة ») وفي «خان الخليلي» ثم في الثلاثية. صحيح ان القضية الاجتماعية كانت المرتكز المحوري لهذه الاعمال الروائية، الا انه صحيح ايضاً ان ازمة الحرية كانت وثيقة الالتحام بهذه القضية ، بل هي اذا تعمقنا الواقع قليلاً من أهم أسبابها الجذرية . ومن ثم جاءت هذه الازمة واضحة في هذه الاعمال. وقد كان نجيب محفوظ واعياً – هو الآخر – لتلك الحقيقة المؤكدة لأن قيادة معركة الحرية كانت للبرجوازية الصغيرة. فالتقط نماذجه التي عالج من خلالها ازمة الحرية من هذه الشريحة الاجتماعية ، وان أهمل تماماً ما تنبه اليه الشرقاوي من بداية مشاركة العمال والفلاحين في المعركة والتي قدمها من خلال الاسطى عبد المعبود في « الشوارع الخلفية » وكثير من الفلاحين في « الارض » . فقد اهمل نجيب محفوظ هذه الحقيقة تماماً ، وعالج القضية من خلال البرجوازية الصغيرة وحدها ، وقدم انعكاس هذه الازمة على كافة فئاتها وشرائحها، ووصف كيف قدمت هذه الطبقة تضحيات عديدة في سبيل هذه القضية، مثل فهمي في « بين القصرين » واحمد وابراهيم شوكت في « السكرية » ومحجوب عبد الدائم بشكل ما في « القاهرة الجديدة » .

غير ان تركيز نجيب محفوظ على هذه القضية لم يظهر واضحاً الا في المرحلة الاخيرة. في هذه المرحلة اكتسبت القضية نوعية جديدة ، ومن ثم تمايزت نوعية التعبير عنها ، فلم

تجد القضية قضية رصد الكفاح البطولي لفك وثاق بروميثيوس، ولكنها اصبحت القول بأن بروميثيوس موثق - يجب هذا القول فحسب، وسط دوامات التأكيد بأنه ليس كذلك، فان كان هذا التأكيد صحيحاً - تطرح الروايات السؤال - فلماذا طاشت ضربات سعيد مهران؟ ولماذا فقد عيسى كل شيء؟ ولماذا لم يعثر صابر على ابيه؟ على سيد الرحيمي؟ لماذا لم يتمكن سعيد مهران - بطل «اللص والكلاب» - من تحقيق الانتقام من الكلاب وأكساب حياته المعنى الذي جعله طموح الرواية في ان يسبغه عليها؟ لماذا فقد عيسى خطيبته ثم ابنته في «السمان والخريف»؟ ثم عاش كالأغبرات بلا دور، يحتقر في المقاهي ذكريات الأيام الخالية؟ ولماذا فتك التمزق صابر في «الطريق»، وهو يبحث وحيداً وبلا اهل، عن الاب المفقود؟ ان هذا الجو المأزوم الذي تعبق بروائحه جميع احداث هذه الروايات الثلاث يؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، ان بروميثيوس موثق، وان الشكل النوعي الجديد للأزمة هو الذي استلزم انطلاقها من خلال اطار نوعي جديد ايضاً، من خلال معاقرة جريئة لأحداث الواقع الصغيرة تكشف عن ثراء هذه الاحداث وتستنطقها بطريقة فنية نادرة وشديدة النضوج والوعي، بما فوق طاقتها من معان وايحاءات، وبذلك تكون نجيب محفوظ من مرافقة سائر قضايا الواقع المعاصر، واحتضانها والتعبير مخلصاً عما في اعماقها، مؤكداً دور الفن الباهر في تزويد امكانيات الرؤية لدى القارىء.

اما يوسف ادريس فقد جاءت معالجته للقضية مختلفة الى حد ما عن معالجة كل من الشرقاوي ومحفوظ لها. فيوسف ادريس من الجيل التالي لهذين الفنانين، ومن ثم فانه لم يشهد فترة الكفاح البطولي من اجل الحرية في ثلاثينات القرن وأربعيناته، حتى ترسو منها احداث رواياته، ولكنه عاش في مرحلة تالية، ومن ثم فانه يستقطبها في روايته «قصة حب» اكثر سنوات هذه المرحلة ثراء ليقدم من خلالها رؤيته لهذه الأزمة - اعني عام ١٩٥٠، ذلك العام الذي فقدت فيه الجماهير الشعبية ثقتها بالحكومة فحملت السلاح وخرجت وحيدها تحارب من اجل حريتها، تحقق لنفسها الاستقلال، في تلك الفترة دارت معارك القنال المعروفة، وتكثفت هذه الشرارة من اشعال لهيب الغضب الشعبي العارم في المنطقة بكل ما حملت المظاهرات شوارع القاهرة من مؤيدة، ونشط البوليس السياسي في اخماد جذوة هذا الغضب، وتطوع المحرب حتى البنات. ومن خلال حمزة، بطل «قصة حب» قدم يوسف ادريس كافة ما كانت ترتعش به وجدانات هذه الفترة من تناقضات، مؤكداً ان التحام البطل المناضل من اجل الحرية بجماهير الشعب هو

الذي يكتسبه الرؤية ، بل هو الذي يعمق له هذه الرؤية . فما كان بطقسه يطيق الانتظار ، خطوة دون نظارته ، غير أنه في النهاية تمكن بوسيط الجماهير الشعبية ، فان يقطع شوطاً طويلاً بدونها . فالتحام بهذه الجماهير هو الذي يعمق رؤيته لابعاد قضيته ، وهي التي تفتح كفاحه من اجل تحريرها القوة والصلابة والانتصار . [illegible]

عن هذا الموضوع نفسه كتب احسان عبد القدوس روايته « في بيتنا رجل » . لا اعني عن كفاح عام ١٩٥١ ، ولكن عن التحام المناضل بالجماهير التي يعمل من اجل قضيتها . ولكن الرواية لم تكن على نفس المستوى الناضج الذي قدم به يوسف ادريس رواياته . اذ استغرق جزء طويل منها الحديث الايام الأربعة التي تعقبها ابراهيم عبد الهادي مطاردا في منازل اخذ اصدقائه بعد هروبه من المستشفى الذي كان معتقلا . لابد لاغتياله عبد الفتاح باشا الشكري ، الخصم السياسي العملاء . باستثناء هذا الجزء ، نجد ان الرواية قد تحركت نسبياً من جميل بفضل ملامح فترة الأزمة الثورية التي تعقبت البلاد ، اذ استقطبت احداثها فترة زمنية عظيمة الثراء ، وهي فترة فقدان الرؤية الصحيحة الجزئيات القضية ويتركزها في عمليات اغتيالات فردية ومجازفات انتحارية ، فقبض على الصعيد الواقعي في هذه الفترة اغتيال كثير من السياسيين العملاء وأذناب السراي ، وتم في مقابل ذلك القبض على كثير من الشبان الوطنيين وبسط أرهبة الحكم الارهابي على المواطنين ، ورغم ثراء هذه الفترة اللامحدود ، فان الرواية لم تتمكن من ان تنقل الينا جميع ملامحها ، ولا ان تعطينا صورة واضحة عن صراع الجماهير من اجل حريتها . وان استطاعت ان تقدم لنا صورة للتغيرات النفسية الصغيرة التي صهرت تردد الكثيرين من ابناء مصر قبل ذلك والتهمت كل تذبذبات البرجوازية الصغيرة الكامنة في أعماقهم . [illegible]

ولا يبقى بعد ذلك من كتاب مصر الذين عبروا عن بعض جزئيات هذه الأزمة سوى توفيق الحكيم في « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » ، ويوسف ادريس في « النائبون ينامون » ، ولطيفة الزيات في « الباب المفتوح » ، وفتحي غانم في « الرجل الذي فقد ظله » ، وغيرهم . ولكن معالجات جميع هؤلاء للقضية لم تشمل كل أبعادها ولم تقدم لنا رؤية واضحة لها . ومن ثم وجب علينا ان ننتقل الى معالجات أدباء سوريا ولبنان لهذه القضية . [illegible]

والنظرة العامة لمعالجات هذه المنطقة لقضية الحرية تقول بأن الفلسفة الوجودية قد

تركت ظلالها الكثيفة فوق تناول الفنانين الروائي لهذه القضية ، اذ لم تقدم القضية في أغلب هذه الكتابات كمطلب جماهيري يطرحه واقع النضال اليومي ، ولكن كمطلب ميتافيزيقي ينبثق عن تزايد الاحساس بالكينونة. هذا بالرغم من أن شعوب هذه المنطقة قد خاضت كفاحاً قاسياً ومريراً من أجل هذه الحرية ، وعاشت بحق فترات طويلة في ظل هذه الأزمة . ولنبدأ بأزمة الحرية عند الكاتب السوري مطاع صفدي ، لنرى كيف تمت معاقرته الروائية لهذه الأزمة .

سنجد ان مشكلة الحرية قد عولجت عند مطاع صفدي ضمن المنطق الشكلي التجريدي الذي تنطلق عبره رؤيته للواقع ، والذي تغلف غلالته الكثيفة مع مزيج من الفلسفة الوجودية كل ما كتب مطاع صفدي من دراسات او قصص . واكثر رواياته معالجة لهذه المشكلة هي «جيل القدر» التي طرح فيها هذه القضية من خلال الاحداث العربية المعاصرة، وعبر المزاوجة الفنية بين حرية بطله الوجودية والرغبة فقط في بلورة ذاتيته، وبين تحديات الواقع العربي المعاصر الذي تدفع جزئياته في كل لحظة هذا البطل الى التخلي عن شكلية رؤيته وتجريديتها ، ولكنه يظل حتى النهاية متمسكاً بهذه الشكلية وهذا التجريد . لذلك فانه بعد تأزم موقفه يفشل تنظيمه في اغتيال الديكتاتور – الذي أكد لنا الكاتب ان رغبة شخوصه في اغتياله ليست نابعة بالدرجة الاولى من رفضهم لاوتوقراطيته ورغبتهم في اغتيال الشروط اللاديمقراطية للحياة المتمثلة فيه ، ولكن من ولعهم المرضي بممارسة حرية القتل ، من شبقية رغبتهم في تحقيق ذاتيتهم . ولهذا كان ارتواء فشل الاغتيال من عبثية المصادفة على درجة كبيرة من الفنية والنضوج . وكان لا بد ان يدفعهم ، كما حدث ، بين براثن تمزقات حادة نابعة من عنف الهزيمة الذاتية . فانطلق حسان الى حلب ، بينما انطلق نبيل الى الجزائر التي يوالي فيها ذات فهمه الشكلي للحرية . فيصرخ وهو على الارض التي يموت بنوها كي تنبت الحرية للصغار : «انني اكره ان يموت احدنا من اجل الشعب الجزائري او العراقي او السوري . ان العربي يموت اليوم لأن هذا هو مصيره» . ولهذا جاء فشل هذا الجيل الذي ارتوى من مناهل الحضارة الاوربية في تحقيق حريته ، سواء بعمله الذاتي او عمل منظماته المنطلقة هي الاخرى من المنطق الشكلي نفسه ، شهادة دامغة على عدمية هذا الدرب وعلى خوائية المصير المفضي اليه .

وثمة رواية اخرى تجسد ازمة الحرية بالمفهوم الوجودي ايضاً ، وان كان بطريقة اكثر نضجاً واكثر معقولية . تلك هي رواية سهيل ادريس « اصابعنا التي تحترق » التي جسدت

لنا هذه الازمة من خلال التمزق الملتاع الذي يعانيه بطلاها سامي وكريم الهـــادي بين يقينية ايمانهم بالالتزام على الصعيد الفكري، ونفورهم من هذا الالتزام على الصعيد السياسي. ومن ثم جاءت ثقتهم الزائدة عن الحد في قوة كلماتهم ، وفي ذلك الالتزام التلقـائي الذي يفرضه منطق الاحداث ، غير كافية لتصيد كافة ابعاد ازمة الحرية . وان لم تكن تلك الازمة هي مرتكز الرواية المحوري، الا انها كانت واحدة من ازماتها الاساسية ؛ وادراج هذه الازمة ضمن القضايا التي تعالجها الرواية في اطارها المعـاصر ، في حد ذاته ، ثم تعمق بعض ابعادها ، يسجل للرواية فهمها الناضج لجزئيات الواقع وتصيـدها لسائر قضاياه ، وان سجلنا عليها عدم اهتمامها بابراز سائر ابعاد هذه الازمة وربطها بأرضيتها الواقعيـة .

اما عبد السلام العجيلي فانه ينهج نهجاً مختلفاً عن سهيل ادريس ومطاع صفدي . فهو لم يغلف معالجته لقضية الحرية برداء وجودي ، ولكنه يقدم مفهومه عن ازمتها من خلال لحظة الحاضر المكثفة التي يعيشها سليمان بطل روايته « باسمة بين الدموع ». تمزقات حادة بين علاقته الجسدية بباسمة وحبه الافلاطوني لالهـــام ، بعد ان ارتكن تماماً الى انه أدى واجبه على الصعيد الوطني في المنافحة من اجل قضية الحرية، بكلماته الملتهبة في افتتاحية الجريدة وخطبه العديدة في قاعة الحزب ، وعليه بعد ذلك ان ينصرف لممارسة حريته في بقية علاقاته .

لا يبقى بعد ذلك سوى ازمة الحرية الوجودية في الرواية النسائية المعـــاصرة ، والتي يمكن رصدها عبر كل كتابات المرأة العربيـة في « انا أحيا » و « الآلهة الممسوخة » لليلى بعلبكي و « لن نموت غداً » لليلى عسيران و « ايام معه » و «ليلة واحدة » لكوليت سهيل و « طيور ايلول » لاميلي نصرالله ، وغيرها . في كافة هذه الروايات يرتوي الفهم الروائي لأزمة الحرية ، من تيقن كل كاتبـة على حدة بوجود ما يمكن ان نسميه ازمة حرية المرأة العربية، ومن رغبتها في تحرير نساء جيلها من ربقة العبودية التي يضعهن فيها واقعنا العربي المعاصر. وقد جنت حدة هذه الرغبة على كافة هـــذه الروايات فأفقدت صاحباتها الرؤية الصحيحة لجزئيات الواقع خلال حدة توقهن الى الصراخ – بطريقة تتراوح بـين المباشرة الساذجة والاقناع الفني – بضرورة ان يتمتعن بالحرية: الحرية الذاتية التي ما تلبث رغبتهن في التسربل بغلالتهـــا الذهبية ان تخلع هذه الغلالة عن كتفي الرجل ، اذ يعتقدن انه هو العائق الوحيد دونهن وهذه الغلالة الذهبية . ومن ثم يصبح هذا الرجل الفاقد للحرية غير

قادرين على اعطائها لهن من خلال علاقتهن به ، غير قادرين على انه يمكن لهذه الحرية المفقودة التي يتوهمون غيابها عن علاقتهن به ، ولكنهن لم يتمكن من ارتداء اثوابهن اذا احترقت في منتصف الطريق ، [illegible] فكانت هذه الروايات تقدمن بالرجل خلال رغبتهن على المستوى الوجودي في التخلص من براثن التشيؤ الى هاوية عدمنا التشيؤ ذاته ، وفي الوقت نفسه يعجزن تماماً عن مبارحة علاقتهن بهذا الكائن المتشيئ ، ولهذا فان المرأة العربية على الصعيد الروائي لم تتمكن من التعرف على الحقول الحقيقية الراسخة لعالم ازمتها ، فسقطت بين براثن هذه الازمنة التي ليست هي سوى انعكاس مباشر للازمة الكبرى التي يعيشها الواقع العربي ، لزمة غياب الحرية ، [illegible]

[illegible] بعد هذه الرحلة المطريقية بين الروايات التي عنت بالازمة الحرية بوجه من الوجوه ، نخلص الى ان هذه الازمة شديدة التغلغل في انيا جنا الروائي ، وان ثراء هذا الانتاج فيها يتبع بالغرابة الاولى من شدة تغلغلها ايضاً في جوانب الواقع الحضاري المعاصر ، كما نخلص الى ان شدة التصاق الروائي بالاراضي الحضارية التي يصدر عنها هي التي تعوق روايته لابعاد سائر قضايا الواقع الذي يعالجه ، ومن ثم كانت شدة وضوح ابعاد القضية لدى عبد الرحمن الشرقاوي وليدة هذا الالتصاق الفاهم لنوعية التناقضات التي يتحرك الواقع من خلالها ، خاصة وانه اعتمد هذه الرؤية على المستوى الفكري كمنهج علمي شديد الدقة ، والمطلع على المستوى الفني ليحاول ان يجمع عناصر الموروث والواقعية الجديدة للامة الازمة واللواعة لحلولها ، [illegible] ، كما نرى ان النظر وفي النواحي الفنية التي تعالج القضية من خلالها وفيها ، تؤشر بوجه من الوجوه على نوعية هذا العلاج له وان اكثر هذه النوعيات صعوبة هي عملية تخطي الواقع في مطلق ظروفه التاريخية الراهنة اذا لم يتوفر لهذه الحالة الفنان المبدع ، فان اعمال الروائي يكون مهدداً بالغموض ، والتفلسف من جهة ، وبالابتعاد عن جوهر الواقع من جهة اخرى ، غير ان معالجة الواقع الناضجة فنياً ، والخالية من الظروف التاريخية ، هي من اكثر المعالجات للقضية الحرية فعالية ، اذ انها تزيد امكانيات الرؤية فلا تقع في الالتباس مع الاحداث الماضية ، ولكن الرؤيات الحاضر الذي يعيشه ، ومن ثم تحدد موقفه بوضوح من كافة المعطيات الراهنة ، هذا الوجود الاجتماعي للفن ، والدور الرئيسي الذي يضطلع به في المجتمع ،